

## دعبل الشاعر الشجاع الدفي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي



يتربص الرجل أن تضع زوجه حملها ليتخير لوليدها أحسن الأسماء ، فإن كان من النقاة الهداة تيمن باسم من يرى فيه الأمانة الحسنة ، والقُدوة الطيبة ، وإن كان من الأترياف أو السراة دارت بخلد أسماء الأغنياء والأشراف يتقن منهم من يرى سماه المثل فيما يستهويه ، ولا أحب والدًا أو والدة يختاران لوليدهما اسماً قبيحاً أو لقباً مستهجنًا لاسيما والأسماء بنير نحن ، إلا إذا جاء ذلك ساعة دعاة أو مرع ، أو عقب واقعة أو حادث كأبي الشيبص وخندف ومعلب وغيرها من الألقاب والكنى والأسماء .

وإذن فلم سمي أبو دعبل ابنه بهذا الاسم ؟ لأنه رأى فيه منة وصلابة ؛ حتى إنه يشبه الناقة القوية الضارعة ؟ أو لأنه لاحظ المنفعة والفائدة ، قللناقة لدى العرب من الفوائد ما لها ، فهي عماد حياة العربي ، كما أن الثور كان قديماً رأس مال المصري . لعل أبا دعبل لاحظ الأمرين معاً ؛ فقد كان دعبل قوي الأُسْر طويل الجسم ، ولا بد أن يكون قد توسم فيه سراوة طبع وصفاء ذهن ، أو على الأقل هذا ما يراه كل والد في ولده متى أهل ، فكرمه بهذا الاسم . ولقد وصف العرب الناقة ومنحوها من الصفات والنعوت ما أفعمت به أشرافهم ، وهذه مملقة طرفة بن العبد أبرز محاسنها وصف ناقته وصفاً دقيقاً في نحو ثلاثين بيتاً ، فلم يترك عضواً إلا أبدع في تصويره ؛ فن ذلك قوله يصف خدها وعينها ، ولعلها أقل أعضائها حسناً :

وخد كقرطاس الشامي ومشفر كسبت اليماني قده لم يجرود  
وعينان كاللاويتين استكنتا

بكهفي حجابي صخرة قلب مورد

وننتقل من سبب تسميته إلى حياته ونشأته الشعرية التي

تبين صفته اللتين سنتحدث عنهما .

ولد دعبل في العصر الذهبي لدولة بني العباس ، فالملك ثابت الأساس موطن الأركان ، لا يعرفون لبني أمية شأنًا ، ولا يخافون من بني عليّ نقصًا ، فالأولون قسب بعضهم في دورهم يبنون نجاة ويطلبون سلامة وأمنًا ، وبمضهم هجر جزيرة العرب ، ونزح من المشرق إلى المغرب ؛ فأسس ملكا وبني دولة ، وأما الآخرون

فأكتفوا بتلك الإمامة الرومية بتوارثونها إمامًا عن إمام ، وشب دعبل عن الطوق ، واصطنع الشعر يمرضه على شمراء عسره ، وكان مسلم بن الوليد أدناهم إلى نفسه ؛ فما زال هذا شأنه حتى أمره أستاذه بإذاعة شعره ؛ لأنه آنس منه إجابة ، ورأى فيه روعة ، وكان أبدع ما أنشد ما قاله في مدح آل عليّ وذكر مناقبهم ، وتمداد آثارهم ، ورتاء قتلاهم ، والتحسر على صرعاهم حتى سار بحق شاعرهم الذائد عن حياضهم ، الثابت على ولائه لهم ، لا يخشى في جهم لوماً ولا يخاف من إعلانه سخطاً ، بل هو بادي الخلفاء العداء ، فالملك لله وحده ، وأينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ؛ فإذا ييمث في نفسه الملع وهو ينصر آل الرسول ؟ ولكن ليس العديد الخوار قرأ هذه الآية كما قرأها دعبل ؟ لقد قرأها ولكن هلعه أنساء إياها ، وذكره بقول الله تعالى « ولا تلتفوا بأيديكم إلى التهلكة » فهو يتقى الشر ويتحاشى أن يقع فيه ، ولكن دعبلًا كان يرى أنه في نصرة آل عليّ يدعو لله ويدفع عن آل رسول الله ، فإن فاته زخرف الدنيا ؛ لم يفته أجر الآخرة ؛ إلى أنه يتصف بخلال نبيلة عدا الشجاعة في الحق ، والجرأة في الذود عنه شجاعة وجرأة يحسبهما الجبان طيشاً ومحمًا ويراها الشهم النبيل رجولة ومنة ، والله قول القائل فإنه ليصور في وصفه دعبلًا :

قل للجبان إذا تأخر سرجه هل أنت من شرك المنية ناجي (١)

كانت حياة دعبل أصدق مثل عليّ أن الآجال موقوتة لا تتأخر ولا تستقدم ، فإنه عادي أولى البطش والطول ، وبأدى البغضاء ذوى القوة والحول عداوة لدودة لا تعرف هواة ، يذمهم ويقذع في ذمه ، ويهجوم ويفحش في هجوه ، غير عابء بما قد يصيبه ، فأرض الله واسعة ، وإذا قلته دار أقلته ديار ، وحسبه أن يجد من يقاسمه زاده ويشاطره رأيه ، روى عنه أنه قال : « لي خمسون سنة أحمل خشبتي على ظهري أدور على من يصلبني عليها فلا أجد من يفعل ذلك » .

والسر في شجاعته أنه كان أول أمره وبدء نشأته من قطاع الطريق وولفة دماء البشر ، يميل إلى إشهار الشر ، ورفع يد البنى في وجوه من يحاولون مساوته ، قال له أبو خالد الخزازي : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ، ووترت الناس جميعاً ، فأنت ذهرك بكله طريد شريد ، هارب خائف ، فلو كفت عن هذا ، وصرفت هذا الشر عن نفسك ؟ فقال له : ويحك ! إني

(١) البيت لجرير من نصيدة يمدح بها الخليل .

مدارس آيات خلت من تلاوة  
لآل رسول الله بالخيف من منى  
ديار علي والحسين وجعفر  
ديار عفاها كل جون مباكر  
ومنها :

ألم ترأى من ثلاثين حجة  
أرى فيهم في غيرهم متقبا  
فآل رسول الله تحف جسمهم  
بنات زياد في القصور مصونة  
إذا وتروا مدوا إلى أهل وترم  
فلولا الذي أرجوه في اليوم أوغد  
خروج إمام لا محالة خارج  
وهي قصيدة طويلة تسمي عيون آياتها بالبريات ، وتصطبغ  
أمواج بحرها بالחסرات ، فإذا كفكف من دمه وهذا من  
روعه ، فلا يه ينتظر أن يستأنم الدهر فيؤمنه ، ويستكشف  
المن فتكشف ، فهو ينشد :

فيا نفس طيبي ، ثم يا نفس أبشري  
فإن قرب الرحمن من تلك مدى  
شفيت ولم أترك لنفسي رزية  
أحاول نقل الشمس من مستقرها  
ولقد رثى الحسين رضى الله عنه رثاء يدي الميون وبنتت  
الأكباد حتى إكأنه حضر مصرعه ، وشاهد موقعه ، فن ذلك قوله :  
رأس ابن بنت محمد ووصيه يا للرجال — على فتاة ترفع  
والمسلمون بمنظر وبمسمع لا جازع من ذا ولا متخشع  
أيقظت أجفانا وكنت لها كرى وأنت عينا لم تكن بك تهجع  
كحلت بمنظر الميون عماية وأهم نيك كل إذن تسمع  
ما روضة إلا تمت أنها لك مضجع ولخط قبرك موضع  
هذه الأمثلة تدل على أن الرجل كان لا يخشى في رأيه لوما ،  
ولا يرهب أحداً ؛ فإنه لهجو في سبيل مدحه آل علي بنى اللباس  
بشر القول ومقذع الهجاء . وأرى أن المأمون لم يكن ليقسو  
عليه لأنه عرف فيه خلتى الشجاعة والوفاء فأجله وأعظمه ، وكان  
كثيراً ما يستنشد شعره .

### عبد العظيم على فناوي

(١) الجاد زين العابدين على بن الحسين وكانت السجود أثر في  
ركبته ، ولتب بهذا لطول سجوده وكثرة

تأملت ما تقول ، فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على  
رهبة ، ولا يبالي بالشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخف شره ،  
ولن يتتبعك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك في تشريفه ،  
وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته  
شرف ، ولا كل من وصفته بالجلود والمجد والشجاعة ، ولم يكن  
ذلك فيه انتفع بقوله ، فإذا رآك قد أوجعت عرضه وغيره وفضحته  
انتفاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك  
يا أبا خالد ! إن الهجاء المفرغ آخذ بضع الشاعر من المديح  
الضرع . قال أبو خالد : فضحكت من قوله وقلت : والله هذا  
مقال من لا يموت حتف أنفه !

بهذه النفسية الحاققة على البشر كان يعيش ، وبهذا النظار  
الأسود الذي يرى به الناس صمالك أوغاداً كان يرى كثرة  
مباشره ومناصره ، فكيف يموت حتف أنفه ؟  
لقد تحققت كهانة صاحبه ، فقد مات مقتولا بعد أن طارده  
الخلفاء والوزراء ، وانتهت حياته على يد أنباغ مالك بن طوق أمير  
عرب الشام في قرية من قرى الأهواز اغتالوه بها ، وانتقموا  
لمداته وهم أكثر منه .

وفي دعبل صفة أخرى غير الشجاعة ، تلك هي الوفاء الصادق  
الذي لا يعرف فيه مينا ، والإخلاص الراسخ لا يشوبه خداع  
أو ختل ، وقال لآل علي على ضهفهم ، ونصرهم بشعره طوال حياته  
على غير خلق الشعراء ، وليمذرتنا سادتنا شعراء عصرنا الذين  
تستولى عليهم عواطفهم ، وتملكهم أهواؤهم ، فن أجزل لهم  
صلته حدود ومدحوه ، ومن قبض دونهم يده تبتذوه وذموه ،  
وله في ذكركم والإشادة بهم والتنبيه على شأنهم ووجوب إعظامهم  
قصيد راثية وأبيات خالدة تدل على أن نظمه فيها كان صادراً  
عن شعور حار ووجدان متدفق وعاطفة حافظة ، بل تدل على أنه  
كان رجل عقيدة ورأى وإيمان ومذهب ، لا تأخذ منه زعازع  
أو أعاصير ، ولا يبلبل إيمانه مآسى ومحن ، ومن قصائده الباقية  
على الدهر قصيدته التي وهب له من أجلها على بن موسى الرضا  
عشرة آلاف درهم ، وخلع عليه برة من ثيابه أريد على بيما  
بثلاثين ألف درهم ، فأبى أن يساوم فيها ، فقطع الراغبون فيها  
عليه طريقه ليأخذوها قسراً فقال لهم : « إنما تراد لله عز وجل  
وهي محرمة عليكم » . فدفعوا له فيها المبلغ السالف ، خلف ألا  
يبيمها أو يملطوه بمضها ليكون في كفته فأعطوه كفاً واحداً ،  
فكان بين أكتافه ، وأول هذه القصيدة هو :